تأثير الوسائط الجديدة على الثقافات والمجتمعات:

تحولات الثقافة والمجتمع نتيجة لتطور الوسائط الرقمية

مقدمة:

يشهد العالم المعاصر تحولات بنيوية عميقة في مختلف مناحي الحياة الثقافية والاجتماعية، نتيجة التطور المتسارع لتكنولوجيات الإعلام والاتصال، حيث غدت الوسائط الجديدة فاعلًا مركزيًا في إعادة تشكيل أنماط التفكير والتواصل وبناء المعنى داخل المجتمعات الحديثة.

فقد أسهم الانتشار الواسع للإنترنت، ومنصات التواصل الاجتماعي، وتطبيقات الوسائط المتعددة، في إحداث انتقال نوعي من نماذج الاتصال التقليدية القائمة على الإرسال الخطي إلى نماذج تفاعلية وشبكية تقوم على التشاركية والتداول اللامحدود للمحتوى. ولم تعد الثقافة حكرًا على المؤسسات الرسمية أو النخب الثقافية، بل أضحت نتاجًا ديناميًا لصيرورات تفاعلية يساهم فيها الأفراد بوصفهم منتجين ومستهلكين للخطاب في آن واحد.

وقد أفرز هذا التحول بروز أشكال ثقافية جديدة، مثل ثقافة المشاركة، وثقافة الصورة، وثقافة السرعة واللحظة، مما أعاد تشكيل الذائقة العامة وأنماط التلقي والتعبير الرمزي. كما أسهمت الوسائط الجديدة في إعادة تعريف العلاقات الاجتماعية، حيث انتقلت من فضاءات التفاعل المباشر إلى فضاءات افتراضية عابرة للحدود الجغرافية والثقافية، الأمر الذي أثر في أنماط التنشئة الاجتماعية وبناء الهويات الفردية والجماعية.

وفي المقابل، أثارت هذه التحولات إشكالات عميقة تتعلق بتفكك الروابط الاجتماعية التقليدية، وتراجع دور المرجعيات القيمية، وانتشار النزعة الاستهلاكية والثقافة المهيمنة، فضلًا عن تحديات أخلاقية مرتبطة بالخصوصية، والاختراق الثقافي، وهيمنة الخوارزميات. وعليه، تكتسي دراسة أثر الوسائط الجديدة على الثقافة والمجتمع أهمية علمية ومعرفية بالغة، لما تتيحه من فهم أعمق لديناميات التغير الاجتماعي والثقافي في البيئة الرقمية، واستشراف رهاناتها القيمية والمعرفية في الحاضر والمستقبل

1- مقاربة مفاهيمية: الأثر/ الثقافة/ المجتمع

- **الأثر :**

أ- **لغة:** في اللغة العربية أَثَّر فيه؛ ترك فيه أثرا، وتأَثَّر انْتثر منه وبه؛ أي حصل فيه أثر منه، وفي اللغة الفرنسية التأثير"effet" ؛ إسم مذكر، يعني ما يحدث، أو ينتج بفعل سبب أو عامل ما، في اللغة الإنجليزية التأثير "influence" يحيل إلى السطوة والسلطة والنفوذ، ويرادف أيضا كلمة "effect" التي تعني؛ التغيير الذي يحدث جراء فعل أو سبب ما

ب- **إصطلاحا:** إن التأثير في المعنى الواسع للكلمة، يمكن تعريفه مثل أي شكل للفعل من قبل (أ) (المؤثر) يمارس بطريقة فعالة على (ب) (المتأثر)، ينتمي التأثير إذا إلى فئة علاقات السلطة، وأن يكون لدى (أ) تأثيرا -كما لو كان لديه سلطة- يعني بالنسبة له القدرة على تبديل فعل (ب) في اتجاه اختاره (أ) عن قصد لأنه يعتبر التوجه الجديد لـ (ب) أكثر ملاءمة لمصالحه الخاصة، إن ممارسة التأثير على (ب) يعني بالنسبة لـ(أ) جعله يتعاون عبر إقناعه أو على العكس عبر ردعه.

لكن التأثير يتميز عن السلطة بطبيعة الموارد التي يستخدمها؛ حيث تستند السلطة في المعنى الضيق للكلمة على "موجب إكراهي، "biding obligation"حسب بارسونز، في حين يستعير التأثير دوافع مختلفة.

أي أن التأثير يحيل إلى قدرة كيان ما على تحويل اتجاه أو تفكير أو سلوك طرف معين لما يخدم مصالح هذا الكيان أو مصالح من يسيره.

يقصد بالتأثير في عملية الاتصال، حدوث الاستجابة المستهدفة من هذه العملية، و التي تتفق مع مفهوم الهدف من الاتصال أو وظيفة الاتصال، و عادة ما يكون هذا الهدف في وعي المرسل أو القائم بالاتصال و يُتوقع تحقيقه من طرف المستقبل أو المتلقي، إذن فالتأثير مرتبط بالقصدية و الرغبة في بث رسالة معينة

كما يعرف التأثير على أنه التغيير الذي يطرأ على مستقبل الرسالة الإعلامية ويتنوع من تغيير أو تعزيز أو خلق ومستوياته ثلاثة: نفسي وجداني/ عقلي إدراكي/ سلوك

- **الثقافة:**

الثقافة كلمة حديثة في معناها قديمة في استخدامها في اللغة العربية، استخدمت بمعنى الحذق والتهذيب في المعاجم والأمثال العربية، ووردت في التنزيل الكريم بمعنى الفعل وجد في قوله عزوجل﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ وقيل أنها وردت في كلام ابن خلدون بمعنى قريب من معناها في العصر الحاضر.

أما الثقافة بمعناها الشائع فلم يكن لها وجود قبل الاحتكاك الأخير بالغرب، حيث تشير الدراسات أن مصطلح الثقافة kultur أول ما ظهر ظهر في ألمانيا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، على اختلاف في ذلك بين أول من استعمل اللفظ، فمن قائل أن ظهوره لأول مرة كان على يد المفكر والقانوني سيميل بوثندروف الذي عاش ما بين 1632و1694، ومن قائل أن ظهور الكلمة كان في قاموس ألماني سنة 1793.و مهما يكن من أمر هذه الاختلافات فهي تقرر أن أصل المصطلح ألماني .

ورغم تعدد التعريفات التي توصل إليها علماء الفكر والثقافة حول مصطلح الثقافة إلا أنه من الصعوبة بمكان الاتفاق على تعريف ، لاختلاف الرؤى المعرفية ولاتساع وشمولية مفهوم الثقافة في حد ذاته حيث يعتبر مفهوم الثقافة من أعقد المفاهيم الاجتماعية تحديدا إلى جانب مفهوم المجتمع، وتشير إحصاءات إلى وجود أكثر من 200 تعريف للثقافة.

- **المجتمع**

في فكلمة "جماعة/مجتمع"، شأنها شأن الكثير من المصطلحات مثل الدين والثقافة، تطرح إشكالات عدة على مستوى تعريفها، وتتمايز تعريفاتها بتمايز الحقول المعرفية التي تتناولها، فكلمة جماعة تحمل دلالات رمزية ووظيفية في الآن ذاته، فنحن نجتمع في أحياء فيزيائية إجمالية نسميها جماعات – مدن، أرياف، ضواحي، أو حتى جدران- وبالمثل، نجتمع وفق تقسيمات رمزية تتأسس على طريقة العيش والهوية، ونسميها أيضا جماعات

بهذا فكلمة جماعة يمكن أن تحمل دلالات مختلفة، إذ قد تشير إلى موقع جغرافي، أو مكان تقطن فيه مجموعة من البشر، ويمكن أن تشير الكلمة أيضا إلى مجموعة من البشر يشتركون في الهوية أو السمات أو القيم أو نمط الحياة- مثل الجماعة الدينية-، ويرى بعضهم أن الجماعة تتطلب وجود علاقة التزام أخلاقي "كثيفة" محكومة بأواصر وممارسات قوية دائمة ومتعددة تتحدد بها الأدوار والمعايير والهوية ولا تنفصم عراها بسهولة

وقد لاحظ رايموند ويليامز Raymond Williams، في محاولته لاكتشاف روح الجماعة، أن الجماعة ليست مجرد حدود محلية، بل هي خاصية امتلاك شيء مشترك، مثلا اهتمامات مشتركة أو قيم مشتركة وقد حاول العديد من المفكرين تعريف المجتمع المحلي وتحديد خصائصه،

وهذه التعريفات على كثرتها وتعددها، يمكن جمعها في تعريف واحد شامل كامل اتفق الباحثون على شموليته وهو تعريف جورج هاليري George hillery الذي أحصى ما يقارب 94 تعريفا سوسيولوجيا وأخضعها للتحليل الكمي والكيفي ثم استخلص تعريفا سوسيولوجيا جامعا إلى حد كبير حيث عرفه على أنه مجموعة من الناس يشتركون في تفاعل اجتماعي، وبعض الروابط المشتركة بينهم، ويشتركون في مساحة ما، على الأقل لبعض الوقت، إذن هناك أربعة عناصر أساسية لتكوين المجتمع المحلي، وهي: **الجماعة، والتفاعل، والروابط، والمكان والزمان**

ومن ذلك نجد أن العناصر التي تكون المجتمع تتمثل في:

- إدراك أفراد المجتمع وشعورهم بأنهم يكونون وحدة واحدة.
- نطاق جغرافي يجمع أفراد المجتمع وجماعاته.
- وجود نظام يسمح لأفراد المجتمع بالتعبير عن أفكارهم وآرائهم.
- تمكن المجتمع من إشباع الاحتياجات الأساسية لأفراده إلى حد ما.
- وجود سلوكيات اجتماعية داخله: التعاون، التكافل، الصراع.
- بناء اجتماعي خاص به.

بالنظر إلى التعريفات السابقة للمجتمع يمكن أن نستخلص أن المجتمع بالأساس هو جماعة من الأفراد تتأسس على مبدأ الاشتراك: الاشتراك في المرجعيات الثقافية والمعايير والقيم، وتربط بينها علاقات وتفاعلات، كما تتقيد بقواعد وبنى معيارية تشكل ما يسمى بالضبط الاجتماعي، كما تتطلب التفاعلات بين أفراده وجود التزامات أخلاقية محكومة بأواصر وممارسات قوية دائمة ومتعددة تتحدد بها الأدوار والمعايير والهوية ولا تنفصم عراها بسهولة. فأساس تكوين المجتمع هو الاتصال بما يحمله من معاني المشاركة والاشتراك، لا المكان الجغرافي، وفي هذا الصدد قدم الفيلسوف جون ديوي(John Dewey) معادلة لثنائية المجتمع والاتصال في مقال مشهور صدر سنة 1916 بعنوان "الديمقراطية والتربية" أكد فيه أن المجتمع لا يتشكل وجوده عبر التواصل وعبر الاتصال فحسب، بل ويمكننا القول وبكل ثقة وثبات أن المجتمع يستمر وجوده في التواصل وفي الاتصال، فالاتصال كما أضاف، هو الطريقة التي تتمكن عبرها التجمعات البشرية من أن تجد أشياء مشتركة حتى تعيش سويا

2- **مقترب التأثير في علوم الإعلام والاتصال:** في الواقع تعتبر مسألة تأثير وسائل الإعلام إشكالية معقدة بالنسبة لمدارس الإعلام ومقترباتها المختلفة، ومن بين العوامل المساهمة في التعقيد: **عامل الضعف النظري** في ميدان علوم الإعلام والاتصال نظرا لأنه من العلوم المتفرعة وبالتالي تبعيته النظرية والمعرفية والمنهجية لحقول متعددة.

عامل أخر ساهم في هذا التعقيد هو **عدم ملاءمة بعض التقنيات البحثية فيه** (إشكالية البحث في التأثير مثلا والعوامل المساهمة في إحداثه، تعدد الوسائل المساهمة في التأثير، إضافة إلى اختلاف المجتمعات وتعقد الظاهرة الإنسانية والاجتماعية).علاوة على ذلك، فإن **تعدد دعائم الاتصال الوسيطي** واندماجها المتنوع في الممارسات الاجتماعية قد عقّدا المنهجية وأدوات التحليل.

ويشمل مقترب التأثير مجموعة النظريات والمقاربات التي تناولت التأثير البالغ والمباشر والتأثير المحدود الفوري والطويل المدى، وهي تهتم بالتغيير أو التحول الذي قد يلاحظ في سلوكيات الجمهور ومواقفه وحالاته الانفعالية والذهنية والإدراكية والمعرفية أثناء وبعد التعرض لوسائل الإعلام وعلاقة هذا التغيير، مقارنة بالوضع السابق للتعرض، بالقدرة المفترضة التي أسندت لهذه الوسائل في مختلف مراحل تاريخ أبحاث الجمهور.